أمالي السنية : ٣

الحجّ والرقص

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي
من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

١

المشهور بين علماء « الألسنيّة الساميّة » ان العربية محافظة على القديم ؛ ممّا جعلها اشبه اخواتها باللغة الساميّة الامّ . وهذا عين الواقع في غالب الاحوال ، ولاسيما من حيث الاصول الصرفية النحوية . اما من حيث قدم معاني الالفاظ ، فالعربية قد تقصر ، بعض الاحيان ، عن مقابلة ، بل قل عن مجاراة شقيقاتها ؛ وذلك لانها دوّنت آخر جميعها . فبفعل التطوّر الملازم طبيعة اللغات ايّة كانت ، قد استحدث للكلمات فيها معانٍ ، وهُجرت فبادت معانٍ ؛ فلم يكن لها وجود عصرَ تدوين المعاجم ؛ او ان المدوّنين لم يدرجوها في اسفارهم ، امّا سهوًا ، وامّا لغاية في النفس . ودونك مثالًا على هذا القول لفظة « الحج » التي قصدنا البحث عن اصلها ، طبقًا لاصول الألسنيّة .

اذا كشفت عن كلمة « حجّ » في كتب اللغة العربية ، فلا تقف لها سوى على معنى القصد او الاتجاه او الزيارة او التردّد ، من باب الاطلاق ؛ ومعنى الذهاب الى مكة قصد النسك ، من باب الحصر[1] . والحال اننا لنجد بوناً شاسعاً بين هذه الدلالة المتأخرة ودلالتها الاولية العريقة في القدم ، حين درسنا اياها في بقية اللغات السامية . ولكي نطلعك على السبيل الطبيعيّ الذي سارت فيه هذه اللفظة ، في تطوّر معانيها ، على مدى الاجيال ، يجدر بنا ان نرقى الى اصلها فنقول :

١) راجع لسان العرب ج ٣ ، ص ٤٨ وما بعدها ؛ وتاج العروس ج ٢ ، ص ١٦ و ١٧

الذي لاح لنا ، شخصياً ، بعد التقصي المنطقي اللغوي ، ان مادة (ح ج) الثنائية[1] «اسم صوت طبيعي» ، اذ معلومك ان الانسان يعيش بالهواء الداخل الى رئتيه والخارج منهما . فاذا برز هذا الهواء بدافع الطبيعة سُمّي « نَفَساً » ؛ واذا صدر بالارادة ، او بقوة عارض خارجي يمرّجه ، كتصادم جسمين ، دُعي «صوتاً» ؛ واذا تكيّف الصوت بكيفيات خاصة ، أُطلق عليه اسم « حرف ». هذا وان مجرى التنفس ، لمؤثر من المؤثرات ، صدر الصوت « كحرف الهاء » ؛ واذا كان الجهد شديداً عنيفاً ، جاء الصوت «كحرف الحاء» ؛ وهو الذي نلاحظه عند تضايق النفس ، او لدى الركض ، او حين مزاولة مهنة تضطرّ صاحبها الى المبالغة في صرف القوة ، كمهنة كسّاري الحشب ، او دقّاقي الارزّ ، او الحدّادين وغيرهم . فانهم عند كل ضربة او دقة او طرقة يمزلونها في مادة صنعتهم تسمعهم يخرجون من فيهم صوتاً هو صوت « الحاء » ، وان سألتهم عن ذلك اجابوك انهم يجدون فيه تخفيفاً لعناء الجهد المجبَرين على بذله في عملهم . ومما يزيد في تعليل النصب هو سدّ الفم وطبق الاسنان ، بعد اصدار الصوت ، مما يلزم له الوقوف على حرف صحيح قوي مثل القاف او الكاف او الكّاف . وهذا ما جعل ان يكون اسم الصوت المذكور ، عند تلك الفئة من العمّال ، مركّباً من حرفي الحاء والكاف[2]

فاذا علمت هذا ، نوقفك على امر آخر ضرورية معرفته لبحثنا ، فنقول :

١) او بالاحرى (حآ.كم) كما هي في جميع اللغات السامية الاخرى ، وفي العربية الجنوبية ، اي السبئية او الحميرية ، وفي المصرية السامية الحالية .

٢) في العراق ضرب من السفن الشراعية تدعى الواحدة منها « مَهيلة » جمعها مَهايِيل » تُستخدم للنقل . ونذكر اننا حين كنا نخيّم ، او نسكن الدور ، على ضفاف دجلة في ضواحي بغداد كما هي عادة الاهلين فيها ايام فصل الخريف ، كنا نرى طائفة من ملاّحي هذه «المهايِيل» عند عودتهم من سفرتهم الى الجنوب ، مشطرين النهر صعوداً ، ساحبين « المهيلة » بالقلس ؛ وكثيراً ما كنا نسمعهم يكرّرون بعد زعيمهم بعض الكلم ، منها هذا الصوت الذي نحن في صدده وهو «حكْ حكْ» : ولم يكن ذلك منهم ، دون ريب ، الاّ تخفيفاً لما يكابدونه من التعب في عملهم الشاق الذي يدوم ساعات بل اياماً . اجل ان الكلمة المذكورة هي «حق» من الاسماء الحسنى ، يبيدونها طلباً لمعونة الباري ، ويلفظون قافها كافاً حسب اللهجة العراقية ، الاّ ان الصوت فيها والغاية المتوخاة منها هي عين ما قلناه في شأن «الحكْ» اي الحج .

من الغرائز الطبيعية في ابن آدم ، في جميع اطواره البشرية ، ولاسيما الفطرية والبدوية ، هي غريزة الرقص الذي يتم بحركات وصياحات وضجيج وتصفيق بالايدي وضرب بالارجل . وقد تولّد الزفن عند الشعوب القديمة من حاجة الانسان الى التعبير ، في الخارج ، عن حاساته الداخلية . لان العواطف ، اذا بلغت مبلغاً زائداً من الشدّة ، أثّرت في البدن فحرّكته ؛ واذا تمت هذه الحركات بنظام وتنسيق نتج عنها الرقص[1] . ومما يضارع الرقص منشأ هو اعراب المرء عن شعائره بالالفاظ والاصوات التي ، اذا ضُبطت بقواعد واوزان ، صدر عنها الشعر والموسيقى . ولاجل ذلك نرى هذه الفروع الثلاثة من الفنون الجميلة اي الشعر ، والموسيقى ، والرقص ، غير منفكّة بعضها عن بعض في جميع العصور ؛ وقد استعملها الناس في عامة احوالهم المدنية والدينية[2]

ففي الظروف المدنية ، تلفي الرقص جارياً بعد الحصاد وجني الاثمار ؛ وعقيب النصر في الغزوات والحروب ؛ وفي زمن السلم ، ايام الافراح ، كالولائم والاعراس ، والمواسم والاعياد . وهذه التوراة تخبرنا عن فرص عديدة حدث فيها الرقص ، فقد رقصت مريم اخت موسى ورفيقاتها بالدفوف ، بعد عبور البحر الاحمر[3] ؛ وبنت يفتاح ، بعد كسر ابيها للعمونيين[4] ؛ ونساء اسرائيل عقيب صرع داود لجلياد[5] ؛ وجاء الفلسطينيون يشمشون فارقصوه عند ختام وليمتهم[6] . وينبئنا الانجيل عن وقوع الزفن والغناء في مأدبة ابي الابن الشاطر بعد عودته تائباً[7] ؛ وعن رقص ابنة هيرودية ، يوم ولادة هيرودس[8] . وهذا امر جارٍ اليوم عند كل الامم ، كما كان جارياً عند القدماء .

على ان الرقص كان ايضاً من رتب الدين ؛ إمّا لمرافقة الغناء والموسيقى[9]

---

١) اطلب كتاب : *La religion primitive, par* Mgr le Roy, *p. 301*

٢) *Dictionary of the Bible, T. I, by* Hastings. *pp. 549, 550*

٣) خروج ١٥ : ٢٠

٤) قضاة ١١ : ٣٤

٥) ١ ملوك ١٨ : ٦ و ٧

٦) قضاة ١٦ : ٢٥

٧) لوقا ١٥ : ٢٥

٨) متى ١٤ : ٦

٩) ملوك ١٨ : ٧

واما كواسطة لاشتراك الجسد مع النفس[1] في آداء العبادة لله ، وقد كان مألوفاً في الاديان الباطلة ، كما في الدين الصحيح . في الاديان الوثنية كان الرقص من اهم الامور : فالمصريون كان عندهم لخدمة الآلهة جماعات من المغنيات والراقصات بوكان الكنعانيون يرقصون في تعبدهم لعشتروت ؛ واليونانيون في تكريمهم أدونيس ؛ والرومانيون كانوا يدعون الكهنة (Salii) وهو اسم مشتق من الفعل اللاتيني (Salire) ومعناه « الرقص » . امّا العبريون فقد فعلوا كبقية الشعوب ، سواء في خدمتهم الاله الحق ، او عند حيادهم عن سبيل عبادته . فقد رقص الشعب كله حول العجل الذهبي ، حين استبطأوا نزول موسى من الجبل[2] ؛ وفي زمن ايليا رقص كهنة البعل حول مذبحه[3] ؛ وبنات شيلو رقصن في عيد من اعياد يَهوَه[4] ؛ وداود امام تابوت العهد ؛ وكان الرقص رتبة من رتب الهيكل ، وعملاً من الاعمال المهمة في اعياد اليهود جمعاء .

اما كيفية الرقص عند القدما فلا تعرف تفاصيلها بالتدقيق ؛ الّا انه من السهل تصوّرها . فانه ، ولا ريب ، كان الرقص عند الساميين عامة ، وعند اليهود خاصة ، كما هو جارٍ اليوم في بلادنا بين اهل البادية والقرى وطبقة العامة في المدن . ولنا مثال على بعض انواع في الرقص المدعوّ « الدَّبكة » فانه يتم على نغمات المزمار (الشبّابة او المُطبِج ، في عرف البدو ؛ وهو المزمار المركب من قصبتين ملتصقتين وفي كل منهما عدة ثقوب) ؛ فيرقص واحد وحده ؛ او

١) ترى اليهود ، حتى في ايامنا ، يكادون يرقصون وقت العبادة ، بنوع يحمل الناظر على الضحك دون عمد منه : فانهم يحركون ، بخفة وتكاربر ، جميع اعضائهم : رؤوسهم ، اكتافهم ، ايديهم ، ارجلهم ، بحيث يقفون على رؤوس اصابعها ؛ كل ذلك ، على واجبهم ، اشراكاً للجسد مع النفس . يشاهد هذا كل مساء ولاسيما ليلة السبت من يحضر صلاتهم ، في القدس عند « ميكاءهم » . (اي حائط هيكل هيرودس ، المدعو عند المسلمين «البُرَاق» حيث رُبط جبريل مرافقُ محمد ، على رواية الحديث ، دابة المعراج ، المسماة «البُرَاق» (وجذا الاسم كني عن الحائط .) ليلة الاسراء : كما جاء في القرآن : (سورة الاسراء : ١) «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير .» وغير خافٍ ان المسجد الحرام هو جامع كعبة مكة : والمسجد الاقصى هو الحرم الشريف في القدس

٢) خروج ٣٢ : ٦ ، ١٩

٣) ١ ملوك ١٨ : ١٦

٤) قضاة ٢١ : ٢١

اثنان متقابلَين ؛ او جملة اشخاص متكاتفين واقفين صفّين متآزيين ؛ والنوع الاكثر شيوعاً هو الرقص بهيئة حلقة ، يتصب المزمّر في وسطها . ويكون ذلك بنوع من الايقاع ، بحيث ان الجميع يرفعون مقدّمين او مؤخرين معاً ، تارةً الرجل اليمنى ، وتارةً الرجل اليسرى ، فيضربون بها الارض ضرباً شديداً. وهو امر يستدعي الجهد المتواصل ، ومن ثم التنفّس العنيف ؛ فيسمع ، اذ ذاك ، من افواه الراقصين قاطبةً ، ما يسمع من افواه الحدّادين ودقّاقي الأرزّ ، وكسّاري الحشب ، اي اسم الصوت الذي ذكرناه ، وهو «حكْ حكْ» ؛ وذلك لان عمل الراقصين ، وعمل اهل تلك المهن ، متشابهان من حيث العناء المطلوب وهذه الطريقة ، طريقة الرقص ، هي التي نشاهدها في الاعراس والولائم والاعياد المدنية والدينية ، عند بعض الطوائف. مثال ذلك ما نراه كل سنة ، في القدس الشريف ، ايام « موسم النبي موسى » عند المسلمين ؛ حيث يتقاطر جماهير مجمهرة من جميع نواحي فلسطين . فان هذا الموسم بما يجري فيه من الغناء والموسيقى والرقص ، لصورةٌ حية ، بل قل مواصلة غير منقطعة لما كان يصنعه اجدادنا الساميون ، من عرب ويهود وارميين وكنعانيين وفنيقيين ، ولاسيما في عصر بداوتهم. ومما يشبه ذلك هو ما يأتيه حتى الآن عوامّ الروم الارثدوكس وغيرهم من الطوائف الشرقية المنفصلة عن الكنيسة الكاثوليكية ، كلّ عام ، يومَ سبت النور ، حين ينتهكون — ويا للاسف — حرمة كنيسة القيامة ، بما يستبيحونه فيها من الاعمال التي لا تختلف عن الاعمال الوثنية.

١ فسانت ترى ان الرقص ، ولاسيما الرقص الساميّ الشرقيّ ، يطلب كثرة عناء ، واجهاد نفس ، يسمع معه ، بضرورة الطبيعة ، اسم صوتٍ مثل « حكْ ». وهذا اول طور لمعاني كلمة « الحجّ او الحكْ ».

٢ واذا كان الامر كذلك ، فلا غرابة اذا وجدنا الرقصَ مُطلقاً عليه اسمُ الصوت الصادر وقت ادائه . كما ان غير افعالٍ ، في جميع اللغات ، تصاغ من اسماء الاصوات ؛ مثال ذلك في العربية ، « أفّ » كلمة تكرّه وتضجّر ، صدرَ عنها فعلُ « أفّ » : قال أفٍّ من كربٍ او ضجرٍ او ألمٍ . وكذلك: « آهْ » صوت توجّع ، جاء منهُ فعل « أهّ » : توجع الكئيبُ فقال آه . فعلى

هذا المنوال انتقل معنى اسم الصوت « حكُ » الخارج وقت الرقص ، الى معنى الرقص عينه ، فصيغ منهُ حجّ او حَكُ . واول لغةٍ ساميةٍ نجد فيها كلمة « حكُ » بمعنى رقص هي العبرية ؛ فقد ورد في سفر سموئيل ما يأتي : « فنزل به ، فاذا بهم منتشرون على وجه الارض ، يأكلون ويشربون « ويرقصون » ، لما نالوه من الغنيمة الوافرة » ولفظة «يرقصون» العربية هي ترجمة «Hogegion» التي في الاصل العبري . ولم يستعمل المترجم العربي فعل « حجّ » لتأدية معنى الرقص ، لان « حجّ » لا تدلّ على الرقص في العربية المدوّنة في المعاجم .

اما الارمية ، او السريانية ، من باب التقييد ، فقد حفظت للفظة هذه ، المدلول المذكور في العبرية ؛ اذ نجد في معجم بربهلول ما هذا تعريبه : « Haggâ » رقصُ الرجال والنساء وهم ماسكون بعضهم بايدي بعض اعلانية »

٣ وبما ان الرقص غالباً ما يكون على شكل حلقة ، دلّت لفظة «حكُ» على حلقة الراقصين ، ثم الدائرة او الدوران ، وذلك بالحرف الثاني ، في العبرية والارمية[1] ؛ واتفقت على تعبيرها عن الادارة والاحاطة كل اللغات السامية ، بصيغتها الثلاثية التي زيد فيها على الثاني « ح ج ، hag » حرف الراء او اللام الشفهيين . من ذلك في العربية من مادة (ح ج ر) : حجَر القمرُ صار حوله دائرة في الغيم ؟ والحجورة لعبة للصبيان يخطُون « خطًا مدورًا » ويقف فيه صبيّ ويحيطون به ليأخذوهُ . ومن مادة (ح ج ل) الحجل : الخلخال ، القيد ، بياض يحيط برجل الفرس[2] . وفي الارمية ، من الثاني : Hgâ دار ، طاف ؛ و Haggi دار في البيعة بزياح ؛ و Hugta دائرة ، هالة القمر . ومن الثلاثي Hgal ادار ، سوّر ، قيّد ، و Hugla حجل ، خلخال[3] . وفي الحبشية ، من الثلاثي Hagar احاط ، شدّ . و Hagal احاط ، حاصر[4] . وفي الاكدية

---

١) *Nouveau dictionnaire complet hébreu-français par* Elmaleh, *Col. 419*
ومعجم دليل الراغبين في لغة الاراميين ، للطران متّا الكلداني ، ص ٢١٨

٢) لسان العرب ج ٥ ، ص ٢٦١ وما بعدها ؛ و ج ١٣ ، ص ١٥٣

٣) *Thesaurus syriacus, auctore* P. Smith ثم ٢١٨ و ٢١٩ : دليل الراغبين ، ص

٤) *Lexicon linguæ æthiopicæ, auctore* Auguste Dillmann, *Col. 130*

(الاشورية البابلية) agâru (اصله Hagâru) سوّر ، احاط[1] . وفي العبرية Hâgar حوّط ، شد[2] .

٤ ولما كان الزفن ، الناشيء عن الفرح والاغتباط ، يجري ايام المواسم والاعياد ، اتخذ لفظ «حگ» بمعنى الاجتماع والاحتشاد ، والموسم والعيد . وقد استعمل ذلك كثيراً في الاسفار المقدسة ، سواء في الاصل العبري ام في الترجمة السريانية البسيطة[3] . اما العربية ، فلم يأتِ فيها لفظ «الحج» بمعنى العيد ، اللهم الّا عند بعض المصنفين او المترجمين ، كالمقريزي في خططه ، وسعديا بن يوسف الفيومي اليهودي في تعريبه اسفار موسى الخمسة . بيد اننا نتصور ان ذلك من تأثيرات اللغة العبرية ، كما استعمل السريان وغيرهم في كتبهم العربية الفاظاً اصولها سامية لكنها ليست عربية بل سريانية كقولك : السليحون (الرسل) ، والصفر (صلاة الصباح) ، والرمش (صلاة العصر) ، والستار (صلاة العشاء) . فقد جاءت اللفظة المسفورة في كلام المقريزي منسوبةً الى اليهود (خطط ج ٢ ، ص ٤٧٤) « وفيه عيد الموقف وهو « حجّ » الاسابيع » وترجم سعديا نص الخروج (٣٤ : ٢٢) و « حجّ » الاسبوع تصنعه لك بكور حصاد الحنطة ؛ « وحجّ » الجمع في نهاية السنة »[4] . وانت ترى انه عبّر عن معنى العيد ، في العربية ، بكلمة « hag » العبرية . واما الحبشية ، فالمحتمل ان حرف « hag » جاء فيها بمعنى العيد[5] . في حين ان الاكدية لم يرد فيها قط «hag» الثاني ؛ ولا يظهر من المستندات المسمارية ان الرقص كان كثير الشيوع في اعياد ومواسم الاشوريين البابليين .

(للبحث صلة)

---

١) *Babylonisch. Assyrisches Glossar, von* Carl Bezold. *p.16*

٢) *Hebraisches & Aramaisches Handwarterbuch von* Gesenius

٣) راجع الآيات الآتية في النص العبري ، وفي الترجمة السريانية البسيطة : قضاة ٢١ : ١٩ و ٢١ — اشيآء ٣٠ : ٢٩ — خروج ٣٤ : ٢٢

٤) *Œuvres complètes de* Rabbi Saadia ben Yosef Al-fayyoumi *publiées sous la direction de* J. Derenbourg. *Paris, 1893. Vol I. Version arabe du Pentateuque, p. 182*

٥) معجم دلّن الحبشي اللاتيني في الموضع المذكور آنفاً .